



السنوسي محمد السنوسي - مصر

لحظة

أمام جلال الموت وسطوته.. يقف الناس جميعاً مستسلمين.. وجلة قلوبهم.. خاشعة أبصارهم.. لا ترى لهم حركة، ولا تسمع لهم حساً.. ينتزعهم الموت من دوامة الحياة التي لا تكف عن الدوران.. فإذا هم كأنهم أمام أمر لم يكونوا يتوقعون حدوثه في أية لحظة!!..

والعجيب أنهم يعرفون - تمام المعرفة - من قبل وقوعه، أنه حين يأتي لا يطرق باباً، ولا يهاب حجاباً، ولا يستأذن أحداً.. فتلك طبيعته وخاصيته.. ومع ذلك، فإنهم يبدون أمام بغة الموت: كأنهم كانوا يتوقعون منه أن يخالف ما عُرف به..

وليس على من تصرف حسب طبيعته ملام، إنما الملام على من طلب من الأشياء غير طبيعتها، وأرادها على غير ما جُبلت عليه!!

في التصور الإسلامي: لا تعدو لحظة الموت أن تكون مرحلة من مراحل الحياة، شأنها في ذلك شأن لحظة الميلاد!!

مكثفة

ومراحل الحياة هذه - باختلافها وتضادها - تسلم الإنسان إلى أجل هو بالغه، ومستقر هو صائر إليه، لا مفر من ذلك ولا مهرب: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْكِيه﴾ (الإنشقاق: ٦)، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨).

ولأن الأمر هكذا، يجب ألا تشغلنا كثافة المعاني التي تمتلئ بها لحظة الموت - والتي بسببها يصير الناس في ذهول كما أسلفنا - عن تلمس العبرة والعظة، ورؤية الخيط الدقيق الذي يصل ما قبل الموت بما بعده: فليس الموت نهاية يتبعها عدم، ولا فناء ليس بعده لقاء: إنما هو نهاية مرحلة تُقضي إلى حساب وجزاء.. وجنة أو نار..

وحين يمد الإنسان بصره إلى ما بعد الموت، ويصله بما قبله في حلقات مترابطة: فإنه لا يتوقف كثيراً عند لحظة الموت مهما عظمت، ولا يجزع ولا ييأس عند فقد الأحبة،

حَقًّا، وَجَعَلَتْ لِي عَلَيْهِ حَقًّا قَرْنَتَهُ بِحَقِّكَ، فَقُلْتُ: ﴿أَشْكُرُ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكَ مَا قَصَرَ فِيهِ مِنْ حَقِّي، فَاعْفُ رَحْمَةً لَكَ مَا قَصَرَ فِيهِ مِنْ حَقِّكَ، فَإِنَّكَ أَوْلَى بِالْجُودِ وَالْكَرَمِ.

فلما أراد الانصراف قال: يَا ذَرُّ! قَدْ أَنْصَرَفْنَا وَتَرَكْنَاكَ، وَلَوْ أَقَمْنَا عِنْدَكَ مَا نَفَعْنَاكَ.

إن هذا الموقف، الذي يفيض حزنًا وأسى بفراق فلذة الكبد وقرّة العين، لم ينسَ فيه أبو ذر الهمداني أن يذكر نفسه وأحفاده - ويذكرنا معهم - بحقائق هي أوضح من الشمس، لكنها قد تغيب في مثل هذه المواقف: لِمَا رُكِبَ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ غَفْلَةٍ وَنِسْيَانٍ..

والصبر حقًا عند الصدمة الأولى!!
ومع أن الحزن والبكاء عند فَقْدِ الأحبة أمر لا حرج فيه، بل هو من طبائع النفوس السوية الوافية؛ إلا أننا لا نستطيع أن نعدّ أنفسنا قد استوعبنا ما في لحظة الموت من معانٍ مكثّفة؛ إن وقفنا عند الحزن والبكاء على فَقْدِهِمْ وَلَمْ نتجاوز ذلك إلى استدراك ما فاتنا من خير، والاعتبار بمن سبقنا إلى دار الحق، وأصلحنا، ورجعنا، وتُبْنَا، وَأَتْبْنَا..
فإن حصل ذلك واستدركنا، كان الموت مُذَكِّرًا، وَمُنْبِهًا وَمُعِينًا عَلَى الْخَيْرِ..

وساعتها لن يخلو من فوائد!! حتى وإن فَرَّقَ الشَّمْلَ، وَأَحْزَنَ الْقَلْبَ، وَأَسَالَ الدَّمْعَ، وَبَاعَدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَنْ نَحِبُ..
فعزّأنا أَنْ نَلْتَقِيَ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَنَتَعَمَّ بِجَوَارِهِ الْخَالِدِ.. حَيْثُ لَا هَمٌّ، وَلَا حَزَنٌ، وَلَا فِرَاقٌ. ■

بل يكون مشغولاً عليهم بدل أَنْ يُشْغَلَ بِهِمْ. ويحزن لهم أكثر مما يحزن عليهم..

يحفظ لنا تراثنا الإسلامي واحداً من أروع مواقف الرثاء... يعلمنا كيف يكون حالنا عند فراق الأحبة؟ وكيف نرى الموت في حقيقته ودلالته؟ وكيف تكون النفوس العامرة بالإيمان مطمئنة إلى قدر الله، راضية عنه غاية الرضا؟

لما مات ذر الهمداني - وكان موته فجأة - جاء أبوه فوجد عياله يبكون عليه، فقال لهم: مَا لَكُمْ؟ وَاللَّهِ مَا ظَلَمْنَا، وَلَا قَهَرْنَا، وَلَا ذَهَبَ لَنَا بِحَقٍّ، وَلَا أَصَابْنَا فِيهِ مَا أَخْطَأَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فِي مِثْلِهِ!!

ولما وضعه في حضرته قال: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا بُنَيَّ. وَجَعَلَ أَجْرِي فِيكَ لَكَ، وَاللَّهِ مَا بَكَيتُ عَلَيْكَ وَإِنَّمَا بَكَيتُ لَكَ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ بِي بَارًا، وَلِي نَافِعًا، وَكُنْتُ لِي مَحِبًّا، وَمَا بِي إِلَيْكَ مِنْ وَحْشَةٍ، وَمَا بِي مِنْ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ مِنْ فَاقَةٍ، وَمَا ذَهَبَتْ لَنَا بَعْزَةٌ، وَمَا أَبْقِيَتْ لَنَا مِنْ ذَلٍّ، وَلَقَدْ شَغَلْنَا الْحَزْنَ لَكَ عَنِ الْحَزَنِ عَلَيْكَ: يَا ذَرُّ! لَوْلَا هَوْلُ الْمَطْلَعِ لَتَمَنَيْتُ مَا صُرْتُ إِلَيْهِ، فَلَيْتَ شِعْرِي: مَاذَا قُلْتُ، وَمَاذَا قِيلَ لَكَ؟!

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَعَدْتَ الصَّابِرِينَ عَلَى الْمَصِيبَةِ ثَوَابَكَ وَرَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ وَقَدْ وَهَبْتَ مَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْأَجْرِ إِلَى ذَرِّ، صَلِّ عَلَى مَنْ بِي وَبِهِ، وَلَا تَعْرِفْهُ قَبِيحًا، وَتَجَاوَزْ عَنْهُ، فَإِنَّكَ رَحِيمٌ بِي وَبِهِ.

اللَّهُمَّ وَقَدْ وَهَبْتَ لَكَ إِسَاءَتَهُ لِي، فَهَبْ لِي إِسَاءَتَهُ إِلَيْكَ، فَإِنَّكَ أَجْوَدُ مِنِّي وَأَكْرَمُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ لَكَ عَلَيْهِ

كلمات مضيئة

- ذكر الله وتلاوة كتابه شلال من النور يسري في الجوانح ليزرع الأمل في قفار النفس الموحشة.
- الرضاء بقضاء الله والتسليم له بالأمر نور يتخلل أوقاتنا بالمسرات.
- أروع الوفاء ذاك المتألئ في الأعين خجلا وتحويه القلوب إخاء زاكيا.

فوزية العمري - المدينة المنورة